﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر تعالى عنِ المنافقين أنّهم طعنوا في الرّسول ﷺ؛ بأن نسبوه إلى الغُلول والخِيانة، حكى عنهم شبهةً أخرى في هذه الآية، وهي قولهم: لو كان رسولًا من عند الله لما انهزم عسكره من الكفّار في يوم أُحد، وهو المُراد من قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، أي: هذا الانهزام إنّما حصل بشؤم عصيانكم[1].

فوقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة الّتي نزلت بهم، وإعراضهم عمّا نزل بالكفّار، وعرّفهم أنّ ذلك بسبب أنفسهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَبۡتُكُم﴾ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ ﴿أَصَبۡتُم﴾: الصَّاد والواو والباء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرَارِهِ قَرَارَه، ومنه الصَّوبُ، وهو نُزولُ المطرِ. والنَّازِلُ صَوبٌ[3]. وفي دائرة هذا الأصل تدور معاني الألفاظ الثّلاثة، فأصابته مصيبة، أي: أخذته، فهو مُصاب[4]. وأصاب السّهم: إذا وصل إلى المرمى بالصَّواب، ولم يُخطئ، والإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أي: بالمطر، وفي الشّرّ اعتبارًا بإصابة السّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل النّزول والاستقرار[5].

ويُقال: أصاب الإنسان من المال وغيره، أي: أخذ وتناول[6]. والإصابة: النّزول بالشّيء واللّحاق به خيرًا كان النّازل أم شرًّا، ثمّ كثر في الشّرّ[7]. والمصيبة أصلها في الرّمية،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (صوب).
(5) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).

ثمّ اختصّت بالنّائبة، نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾[1]. يُقال مصيبة، ومصوبة، ومصابة، والجمع مصايب، ومصاوب. وهو الأمر المكروه ينزل بالإنسان[2]، وهي النّازلة، والّذي جاء في القرآن منَ التّركيب: (الصّواب) ضدّ الباطل والخطأ، و(الصّيّب) المطر، و(أصاب) أراد، ثمّ الحَدَث الّذي يَنزل بالإنسان خيرًا أم شرًّا. وكلمة (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلّا في التّعبير عمّا يعدّه الإنسان شرًّا[3]. ومعنى (أصبتم) غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيْ ما أصابكم به، يُقال: أصاب إذا غَلَب، وأصيب إذا غُلِب[4].

2) ﴿مِّثْلَيْهَا﴾: الميم والثّاء واللّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مُناظرة الشَّيءِ للشَّيءِ. وهذا مِثلُ هذا، أَي: نَظيرُهُ، والمِثلُ والمِثالُ في مَعنًى واحدٍ[5]. والمَثَلُ عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدُهما الآخر ويصوِّرُه. وهو عبارة عن المشابهة للغير في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة[6]. ومعنى (مثليها) في الآية الكريمة: يوم بدر؛ وذلك أنّ المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين، وقَتَل المسلمون منهم يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين[7]. أي: غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيْ ما أصابكم به في معركة أُحد[8].

3) ﴿قَدِيرٌ﴾: القاف والدّال والرّاء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مَبلَغ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونهايتِه[9]. ووصفُ الله تعالى بالقدرة نفي للعجز عنه، ومحالٌ أن يُوصفَ غير الله بالقدرة المُطلَقة معنى، وإن أطلق عليه لفظًا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيل معنى التّقييد، ولهذا لا أحدٌ غير الله يُوصَف بالقدرة من وجه إلّا ويصحُّ أن يُوصف بالعجز من وجه، فهو سبحانه المُنتفي عنه العجز من كلّ وجه. والقدير: من أسماء الله تعالى، وهو: كامل القدرة، الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه؛ فبقدرته

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

أوجد الموجودات، وبقدرته سوَّاها، وأحكمها، وبقدرته يحيي، ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: "كن" فيكون؛ ولذلك لا يصحُّ أن يُوصَف به إلّا الله تعالى[1]. ومعنى اللّفظ في الآية من القدرة بمعنى الطّاقة[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أصـــلُ حصـول الـــخـــذلان هـو شؤم العصيان

تسوقُ الآيةُ تسليةَ الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم يوم أُحدٍ ما أصاب المشركين يومَ بدر؛ فقد أصبتم مثليها من المشركين في يوم (بدر): بأن قَتلتم من كبارهم سبعين، وأسرتم منهم كذلك، فقلتم متعجبين: من أين أصابَنا هذا القتلُ والهزيمةُ، وقد تقدَّم الوعدُ بالنَّصر، ونحن مسلمون، وفينا رسولُ الله ﷺ؟ قل لهم أيُّها النبيُّ ﷺ: هو من عند أنفسكم؛ لأنّكم تركتم مركزَ المعركةِ، وأقبلتم على جمع الغنائم، وعصيتم الرَّسول ﷺ، فمِن قِبلِكم جاء الشّرُّ، فعودوا على أنفسكم باللَّوم، واحذروا من الأسباب المُرْدية؛ إنَّ الله يفعل ما يشاء ويَحْكم ما يريد، فإياكم وسوءَ الظنِّ بالله، فإنه قادرٌ على نصركم، ولكن له أتمُّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم[3].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ أحوال الدُّنيا لا تدوم على حالةٍ واحدة[4]، وأنَّ الله وعد المؤمنين بالنَّصر شريطةَ أن يصبروا ويتّقوا[5]، وعلى المسلم الانقيادُ والتّسليم والطّاعة، فبها يتحقَّقُ الفلاح، ويُتحصَّل النَّصر والرَّباح.

(1) الرّاغب، المفردات: (قدر)، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/113، وابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/224، والسعدي، تفسير أسماء الله الحسنى ص: 223.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدر).
(3) الواحديُّ، التّفسير الوسيط: 1/517، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/969.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ إيلادِ الاستفهامِ حرفَ العطفِ:

حـقُّ المُتعجِّبِ المتغافلِ عن تقصيرِه الإنكارُ الشَّديدُ

غرضُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ الإنكارُ التّعجيبيّ على ما تقدّم؛ فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ممّا يُنكره السّامع، ويُتعجَّب من صدوره منهم بعد ما علموا ما أتوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فِطنة! وقد جاء مَوقِع هذا الاستفهام بعد ما تَكرّر من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرّسول ﷺ، ومن العجلة إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرّضا بما وقع، وذكّرهم النّصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار تعجّبهم من إصابة الهزيمة إيّاهم[1].

الـواو إمَّـا أنَّـها عـاطـفـةٌ عـلى مـحـذوفٍ أو مذكورٍ

يصحُّ في الواو في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أن تكون عاطفةً على ما مضى من قصّة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152]، ويجوز أن تكون عاطفةً على محذوف، تقديرُه: أفعلتُم ما فعلتم، ولمَّا أصابتكم مصيبةٌ.. قلتم[2]؟

نكتةُ توسيطِ الظَّرفِ ﴿أَوَلَمَّآ﴾ بينَ الهمزةِ ومتعلّقِ الظَّرفِ ﴿قُلْتُمْ﴾:

يـــزدادُ قـبـحُ الأقوالِ إذا قيلت في غيرِ وقتها

جاءَ الظَّرفُ (لمّا) الذي هو بمعنى حين، متوسِّطًا بين همزةِ الاستفهام في ﴿أَوَلَمَّآ﴾ وبين متعلّقِ الظَّرفِ الذي هو ﴿قُلْتُمْ﴾، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُه: (أوَ قلتم لمَّا أصابتكم مصيبة..)؟ ونكتةُ ذلك تأكيدُ النّكير وتشديدُ التّقريع؛ فإنَّ فعلَ القبيح في غيرِ وقتِه أقبحُ، والإنكار على فاعله أدخلُ، والمعنى: أحين أصابكم من المشركين نصفُ ما قد أصابهم منكم قبل ذلك؛ جزِعتم، وقلتم: من أين أصابنا هذا[3]؟ ففيه تنبيهٌ على تحرِّي الأقوالِ، ومن ورائه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108، والآلوسّي، روح المعاني: 4/115.

تحذيرٌ في اختيارِ الأوقات؛ لأنَّ قُبحَ القولِ قد يكون ذاتيًّا، لكنَّه يزدادُ شدَّةً إذا كان في غيرِ زمنِه.

بلاغة المجاز في لفظ المصيبة:

سعة معنى المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن

إسناد الإصابة إلى المصيبة في قوله تعالى: ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ مجاز، وإلى المُخاطَبين حقيقة[1]، فالمصيب هو الله[2]، ولفظ المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن، فقد عبّر تعالى بها عن الموت، وهي من أعظم الأحداث.

دلالة لفظ ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ وما يُستفادُ منها:

عند وقوعِ الشَّدائدِ تُستحضرُ الكرائم وتُستبعدُ المصائب

لبيان معنى مثليها في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ علينا أن نعلم أنَّ المشركين لمَّا قتلوا من المسلمين يومَ أُحد سبعين، ذكَّرهم القرآنُ بما وقع يوم بدر إذ قتل المسلمون من المشركين سبعين، وأسروا سبعين[3]، فالمُراد بمثليها: المساويان في الجنس أو القيمة باعتبار جهة المماثلة، أي: إنّكم قد نلتم مثلي ما أصابكم، فإنّ رزايا الحرب أجناس: قتل، وأسر، وغنيمة، وأسلاب، فالمسلمون أصابهم يوم أُحد القتل: إذ قُتل منهم سبعون، وكانوا قد قَتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، فهذا أحد المثلين، ثمّ إنّهم أصابوا من المشركين أسرى يوم بدر، فذلك مِثل آخر في المقدار إذِ الأسير كالقتيل. أو أُريد أنّهم يوم أُحد أصابوا قتلى إلّا أنّ عددهم أقلّ، فهو مثل في الجنس لا في المقدار والقيمة[4].

تذكيرُ النّاسي بالنِّعمِ عند المصائبِ حكمةٌ مرضيَّةٌ

وفائدة قوله: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، أمران:

الأوّل: التّنبيه على أنّ أمور الدّنيا لا تبقى على نهج واحد، فلمّا هزمتموهم مرّتين؛ فأيّ استبعاد في أن يهزموكم مرّة واحدة[5]؟!

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.

الآخر: التّفضل منه تعالى على المؤمنين، بتسليتهم على ما أصابهم، وتذكيرهم بأنّهم قتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وهذا أبلغُ في المنّة والتّسلية، وهو أدعى إلى أن يذكروا نعم الله عليهم السّابقة، ويتناسوا ما جرى لهم يوم أُحد[1].

بلاغة الاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾:

تعجب المنافقين وإنكارهم

و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام بمعنى: من أين؟ قصدوا به التّعجب والإنكار، وجملة: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ جواب (لمّا)، والاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا مُستعملٌ في التّعجب[2]، و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ نصبٌ لأنّه مقول، والهمزة للتّقرير والتّقريع[3].

نكتة التّعبير باسم الإشارة المذكّر ﴿هَٰذَا﴾:

التّعبيرُ ترجمةٌ عن عِظَمِ الأمرِ في نفسِ المتكلّم

تذكيرُ اسمِ الإشارةِ في حكايةِ قولِهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع كونه إشارةً إلى المصيبة ليس لكونها عبارةً عن القتل ونحوِه، بل لأنّ إشارتَهم ليست إلّا إلى ما شاهدوه في المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطُر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلاً عن تسميته باسم المصيبةِ، وإنّما هي عند الحكاية[4]، ويجوز أن يكون التّذكير مراعاة لمعنى المصيبة المشار إليها[5]، وهذا يُترجمُ لنا أنَّ القرآنَ يُصوِّر لنا شخصيَّة المتكلِّم وما يدورُ في خلده.

وجه التّوكيد في جملة القول:

مدارُ المصائبِ على أعمالِ العبادِ

أكّد سبحانه جواب الاستفهام بأنّ سبب المصيبة من أنفسهم بإبراز الضّمير (هم) في الإجابة، والإتيان بالظّرف ﴿عِندِ﴾، وبالتّعبير بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي تدلّ على التّوكيد[6]، فالمعنى: أنتم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1493.

السّبب فيما أصابكم؛ لاختياركم الخروجَ من المدينة، أو لتخليتكم المركز، وعن علي ﷺ: (لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم)[1].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

تقريرُ مضمونِ ما قبلَها داخلٌ تحت الأمر

جُملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها داخلٌ تحت الأمرِ[2]، أي: أنّ اللّه قديرٌ على نصركم وخذلانكم، فلمّا عصيتم وجرَرتم لأنفسكم الغضب قدّر اللّه لكم الخذلان[3].

وقد نبّه بجملة التّذييل على أنّه لم يُصبكم ما أصابكم لوهنٍ في دينِكم، أو ضعف في قدرة اللّه، وإنّما هو من عند أنفسكم، لا من خلل دخل في أمره، فإنّ اللّه على كلّ شيء قدير، ومن كان هذه حاله فهو قادر على دفاعهم[4].

وجه توكيد جملة التّذييل:

استجلاء واسع قدرته

أكّد سبحانه قدرته بلفظ ﴿إِنَّ﴾، وبإظهار لفظ الجلالة الّذي يُربي المهابة من الخلّاق العليم في قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير[5]، والتّعبير بصيغة (فعيل) الدّالّة على ثبوت صفة القدرة فيه، وتمكّنها، ورسوخها على وجه المبالغة.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المثل أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة

المِثْل، والنِّدّ، والشّبه، والشّكل:

فرّق الرّاغب بين لفظ المثل وما يقاربه من لفظ في المعنى بالقول: " المِثْل عبارة عن المشابهة لغيره في معنًى من المعاني أيَّ معنى كان،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/971.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1494.

وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنَّ النِّدَّ يُقال فيما يشارِك في الجوهر فقط، والشِّبْه يُقال فيما يشارِك في الكيفيّة فقط، والمساوي يُقال فيما يشارِك في الكميّة فقط، والشّكل يُقال فيما يشارِكه في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْلُ عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نَفْيَ التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: 11]"[1]. ولعمومه الدلالة اختير في الآية ليعبّر عن عموم الشّبه فيما وقع بين الفريقين من الإصابة في المعركتين.

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»